ثقافة أدب الأطفال بين الماضي والحاضر

د. هيثم يحيى الخواجة *

تمهيد:

إن الحاجة إلى تنمية ثقافة الطفل العربي ضرورية جدًا في عصرٍ مليء بالرياح والعواصف والمشكلات... في عصرٍ ظهرت فيه سطوة الاتصالات والتواصُل والإعلام بصورة واضحة ومؤثرة.

وإن الإيمان بتنمية ثقافة الطفل هو منطلق للنهوض بفكر طفلنا العربي الذي يجب أن نعدَّه للمستقبل.

ولا ريب في أن هناك وسائل لا تُعد ولا تُحصى يجب أن تتعاضد من أجل تطوير هذه الثقافة، والمهم في هذا الأمر هو شمولية وتكامُلية العمل والتنفيذ في آنٍ واحد، وهذا - في رأيي - لا يتحقق إلا بتعميق الوعي بموضوع ثقافة الطفل نظريًا وعمليًا، وحتى نصل إلى هذا المستوى لا بُدَّ أن ندرك أهمية ذلك، وأن نضع الاستراتيـجيَّات والخطط التشغيلية له، لأن مثل هذا التوجه لا يتحقق بين يومٍ وليلةٍ كما أن هذه التنمية تشمل الأسرة والمدرسة والمؤسسات الثقافية والمجتمع أيضا.

وحتى لا ندور في فلَك التنظير ومن خلال تجربتي ومعرفتي بما يُكتب ويُنشر للطفل، أجد أن جزءًا كبيرًا من هذه الإصدارات لا تُسهم في تنمية ثقافة الطفل، كما لا تصلح أن تندرج تحت أدب الأطفال على العموم.

أقول هذا لأن طفل اليوم يختلف عن طفل الأمس، لأن جودة الكتابة لا تنحصر بشاعرية السرد، والخيال، والفكرة المبتكرة، وإنما لا بُدَّ أن نضيف إلى ذلك التوجُّه القيمي والتربوي، وملاءمة المعجم اللغوي، والأفكار المعاصرة، واهتمام الفكرة والهدف الأعلى بمعاناة وآلام وآمال طفل الحاضر، ويمكن أن نضيف إلى ذلك أيضًا إعداد الطفل لما قد يحدث من حروب وأوبئة وكوارث، واستشراف المستقبل.

---

* كاتب وناقد سوري.

إن أدب الأطفال يحتاج إلى الجِدَّة والجديد، وإلى محاكاة الواقع بقضِّه وقضيضه، وإلى الخيال والتخييل، وإلى لغة ناهضة يستطيع الطفل أن يفهمها وأن ينسجم معها، وإلى علم نفس الطفل وما يتضمن ذلك من تجلِّيات تخدم تربية الطفل وتُعمِّق توجهاته السلوكية والأخلاقية والفكرية، وحتى نصل إلى هذا الهدف فمن المهم أن يعرف كُتَّاب الأطفال مراحل النمو عند الأطفال لكي يستفيدوا منها عند شروعهم بالكتابة للأطفال، ولأن دمج التربية بالفن شيء مهم جدًا ولا بُدَّ منه ليكون الإنتاج الإبداعي دقيقًا وناجحًا ولا يخرج عن أُطُر الخصائص النفسية والإدراكية للطفل.

فإن الاهتمام بالفئات العمرية شرط من شروط الكتابة مع اعترافنا بأن بعض الأطفال يخترقون حدود هذه الفئات سواءً من حيث الذكاء المتفوق، أم من حيث الضعف الذكائي أم الإعاقة.

إن الاهتمام بوعي المجتمع يبدأ من الاهتمام بوعي الطفل، وإن رعاية المبدعين والمبتكرين يبدأ بالطفل، وإن تطوير المجتمعات علميًا وتعليميًا وحضاريًا وثقافيًا يبدأ بالطفل، وعليه فإن إيلاء الطفل مساحةً من الاهتمام هي ضرورة أخلاقية ووطنية وإنسانية وحضارية.

«ولئن كان أدب الأطفال الجيد هو الأدب الذي ينزع باتجاه العمق الإنساني ويفتح النوافذ أمام الطفل للتعبير عن مشاعره الصادقة، ويحرره من العُقَد، ويُفسح له الطريق للانخراط بمجتمعه بقوة، وييسِّر له السُّبل لكي يتدرَّع بالقيم وبالأصالة والفكر النيِّر، ويساعده على اكتشاف ما حوله، ويسمح له بالسؤال والتساؤل من أجل مزيد من المعرفة.»[1].

ولأن الطفل ذكي جدًا، ولأنه قادر على تذوُّق الإبداع الذي يُكتب له، فإن الكاتب يحمل مسئولية كبيرة تجاه جيل المستقبل، وهذه المسئولية تتطلب المعرفة والوعي والموهبة، ويمكن أن أشير هنا إلى ثلاثة أمور:

- **الأول**: هو أن أدب الأطفال ليس حقلًا للتجريب حتى لا نخرب الإبداع في هذا الأدب.
- **الثاني**: الاهتمام بالخيال والموضوع، والعمل على اندماجهما وتطابقهما للحصول على أدب أطفال متميز؛ لأن من عناصر جودة هذا الأدب الخيال والموضوع.
- **الثالث**: الحرص على المستوى اللغوي للطفل من حيث الملاءمة للفئة العمرية من جهة، ومن حيث قدرتها على التوصيل، وارتباطها بمراحل النمو من جهةٍ أخرى.

فالنضوج اللغوي له دوره، لأن اللغة تلعب دورًا في التربية وتحريك النبض، وتمنح الطفل فرصةً من أجل المزيد من الخيال والتخييل، كما تلعب دورًا في اكتساب المفردات والتذوُّق،

والجمال اللغوي الذي يفيد الطفل في التقليد وفي ارتفاع الذائقة اللغوية التي تشكِّل سبيلًا واسعًا لتربية التذوق وتطويره.

مع اعترافنا بالإشكالية اللغوية في عصر المعلومات بسبب الازدواجية وتعدُّد اللهجات وانخراطها في صلب اللغة الأم، فإن الإصرار على دعم اللغة الأم له أهميته الوطنية والقومية والتاريخية.

ثقافة الطفل بين الماضي والحاضر:

إذا كان للثقافة مفهوم واسع يتضمن الأهداف الكبرى والقيم التي تؤثر في حياة الإنسان، فإن الحديث عن ثقافة الطفل بين الماضي والحاضر ذو شجون؛ لأن قسمًا كبيرًا من كُتَّاب أدب الأطفال ينهلون من طفولتهم فينقلونها بتفاصيلها وثقافتها وبيئتها إلى طفل اليوم، ظنًّا منهم أن طفولتهم كانت ناجحة وجميلة.

«يُعد أدب الأطفال أداة تربوية يُناط بها تحقيق العديد من الأهداف التي يراها أولو الأمر ذات أهمية في بناء النشء وتنشئته تنشئة سليمة، وهذه الأهداف تندرج تحت أنواع أربعة، هي: الأهداف اللغوية التذوُّقية، المعرفية العقلية، الخُلقية الاجتماعية، النفسية الوجدانية»[(2)].

ومن المفيد نقلها إلى طفل اليوم، وبذلك يقع الكُتَّابُ في خطأ جسيم؛ لأن طفل اليوم يختلف تمام الاختلاف عن طفل الماضي فكرًا وثقافةً وبيئةً ومفرداتِ حياة، فكيف يمكن أن نُقنع الطفل بحكايات فقيرة في فكرتها وبيئتها ومفردات الحياة فيها؟

والذي يزيد الطين بلَّةً استخدام الكاتب مفرداتٍ لغويةً لم تعُد مستعملة، حتى الخيال في الماضي غدَا قاصرًا عن الخيال في عصرنا الحاضر، الذي صار متشظيًا ومتغلغلًا في فضاءات متَّسعة ولا نهايةَ لها، بسبب المخترعات الحديثة التي أسهمت في إطلاق الخيال بصورة هائلة ومذهلة وليست متوقعة.

«وعندما نقوم بدراسة ثقافة الطفل، فإنه يجب أن نشير إلى أن الثقافة التي نعنيها هي ثقافة شمولية بمعنى تغذية عقول الأطفال وتنمية فكرهم وإثراء معارفهم ومداركهم وخبراتهم في كل ما يتصل بهم.»[(3)].

فكيف يمكن أن يتعامل طفل اليوم – على سبيل المثال – مع مفردات لم يتعامل معها ولم يستخدمها كما لم يسمع بها، مثل (الطشت – الجنطاس – البايكة – النبأ – النقيفة – الشنان– البيلون... إلخ).

إن ما قدمته لا يعني رفض التراث، وإنما يعني الحاجة إلى توظيفه بأسلوبٍ واعٍ وجديدٍ ومبتكر لكي يتقبَّله طفل اليوم.

ولأن المجال لا يتسع لشرح وسرد أمثلة لا حصرَ لها حول هذا الموضوع، فإنني سأقتصر في حديثي على مناقشة قصة واحدة وهي (علي بابا والأربعون حرامي).

قصة علي بابا والأربعون حرامي[4]:

مقاربة ورأي

«الحكايات التي يسمعها الطفل تؤثر بشكل كبير على اتجاهات تعليمه في المستقبل، فالحكاية تفيده في التعوُّد على حُسن الاستماع، وتُغني ثروته اللغوية، وتمده بالأفكار والمعلومات والخبرات، وتزيد معرفته بالواقع والعالم، وتشحذ ذهنه بظواهر وقضايا وأمور تهمُّه في الحياة، كما تملأ مشاعره بالسعادة والطمأنينة، وتُحبِّبه بالمطالعة والعلم.»[5].

هذه القصة التراثية التي سمعناها وقرأناها بشوق ومتعة عندما كنَّا أطفالًا دون أن نحلل مغزاها ونتعرف إلى أهدافها، وكَمْ طفلٍ عربيٍّ نام وهو يحلم بهذه القصة متأثرًا بقول علي بابا: (افتح يا سمسم) فتنطلق الصخرة ملبيةً نداء علي بابا فتفتح أبوابها ليدخل المغارة قويًا منتصرًا وفارسًا يقود جماعته ويوجههم إلى فعل أو أمر يريده، والسؤال الآن: هل يُغري طفل اليوم هذا المشهد وهو يرى الباب في المنزل أو الفندق أو المؤسسة يُفتح وحده دون نداء، وبمجرد أن يقف أمامه؟

من هذا المثال لا بُدَّ أن نعتبر وندقق في موضوع ثقافة الطفل في الماضي وثقافته في الحاضر.

«يوظف ذلك التراث وظائف شتى، قد يظهر فيه جانب الخرافة والقدَر، وتغيب منه القيمة الجمالية، ويبدو دعمًا لجانب متخلف في الواقع، وقد يُوظَّف في وعي الإنسان بأنه في عالم مأهول يتحرك وسط صراع من الظلمة إلى النور وتدعم فيه القيمة المتقدمة في الأمس، قيمة متقدمة معاصرة ...»[6].

وإذا أردنا أن نتابع الحديث حول القصة ذاتها، فإن البطل علي بابا ليس البطل المأمول على الرغم من الجانب الإيجابي الذي يتحلى به، وهو أيضًا ليس الفارس القدوة في جانبٍ من الجوانب، على الأقل في حاضرنا المعاصر الذي فيه الكثير من التعقيد، والذي يحتاج إلى الكثير من التأمل والتفكير، وإلى الكثير من التأنِّي في رسم شخصية بطل العصر وأنموذج الحاضر

المتشابك مع وسائل الاتصال وما يدور على هذه البسيطة من تسونامي إلى كورونا إلى جوائح تهدد عالمنا وحياتنا.

نعترف بأن علي بابا كان قويًا وشُجاعًا، وكان يسرق الأغنياء ليُطعم الفقراء، وهذا توجيه جيد لا غبار فيه، وعلى الرغم من ذلك لا بُدَّ أن نتوقف طويلًا عند موضوع السرقة تربويًا وأخلاقيًا وسلوكيًا، ومنهج حياة.. هذا الموضوع مهم ويستدعي المعالجة حين توظيف مثل هذه القصة في أدب الأطفال؟!

«ولا ريب في أن هناك مجموعة عوامل تلعب دورًا كبيرًا في تكريس مشكلات الكتابة للطفل العربي، من أهمها: العوامل الاجتماعية التي تحكم العلاقة بين الكبار والصغار، التي تبدأ بمساحة الحرية المُعطَاة للطفل وتنتهي بإشكالية المزاوجة بين الأصالة والمعاصرة والتركيز على الماضي على حساب المستقبل، وغير ذلك من عوامل تؤثر في موقف المجتمع من الطفولة»[7].

ثمَّة سؤال آخر، بمَ كان يحلم طفل الماضي؟ أما كان يحلم بدرَّاجة يركبها، أو عربة تقلُّه من مكانٍ إلى آخر أو صناعة (بسطة – أو منضدة – أو درَّاجة – أو لعبة من القماش أو الصوف وغير ذلك)؟

واليوم ما أحلام طفلنا؟ أليس حلمه (الصحن الطائر – والطيران في الفضاء – والواقع الافتراضي...)؟

لم يعُد علاء الدين والمصباح السحري من ضمن اهتمامات طفل هذا العصر، ولكن ألست معي قارئي العزيز أنه كان شرارة الحلم للإنسان الوصول إلى تلك المخترعات التي حلم بها طفلنا أو تمنَّاها لديه، لتكون عبارة عن شريحة صغيرة يضعها الإنسان في جوَّاله ليرى العالم بأسره مفسرًا بها خيالاته وأحلامه.

«إن البحث في أشكال التراث يستدعي النظر في موضوعة استخدامه من منطلقين: الأول منطلق القصد الفكري والفني والتربوي، والثاني منطلق الطرائق والأساليب التي لجأ إليها الكاتب لتحقيق ذلك القصد، فهناك أسباب دعت هؤلاء الكُتَّاب لاستخدام التراث مصدرًا لأدبهم، وهناك أسباب جعلتهم يصوغون هذا الاهتمام على نحوٍ أو آخر.»[8].

وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن عبد الخالق في كتابه دور قصص الأطفال في تنمية الطفل حكاية (ابن الملك وابن الشريف) فابن الملك يقول بالقضاء والقدَر، وابن الشريف المعروف بجمال الخلقة يعدُّ الجمال هو كل شيء في هذا الوجود وفي قراءته التحليلية للقصة:

«إذا كان بمقدور الطفل معرفة ما المقصود بابن الملك، لكنه في الغالب سيقف حائرًا أمام المقصود بابن الشريف.. هذه التراتُبية الاجتماعية تظهر كأنها قدَر الإنسان لا فكاك منه، حتى الحظ والمكافأة يُوزَّع حسب هذه التراتبية القَدَريَّة.»[9].

أخيرًا لقد غدا الخيال العلمي في أدب الأطفال مُهمًا لأن جوهر هذا الأدب استطاعته التخييلية في مجاوزة الزمن، كما إن التقانات وثورة المعلومات والاتصالات التي برزت بشكلٍ قويّ في القرن الماضي والحاضر، جعلت المبدعين يعيدون النظر بما يبدعونه للأطفال.

«ومن المهم جدًا أن يتعرف الطفل إلى تراث الآباء والأجداد، لكن المهم أيضًا أن يكون الكاتب ذكيًا في البحث عن جوهر التراث ويقدم له صورة مشرقة منه يستفيد منها ويعتبر من أحداثها.»[10].

والذي لا بُدَّ من التذكير به هو دور المُربِّي في ثقافة الطفل المعاصر، ودور أجهزة الثقافة ووسائل الإعلام أيضًا، فالطفل مهما كان ذكيًا، ومهما علا شأنه فهو يحتاج إلى مرشد ثقافي يأخذ بيده، وللمُنشِّط الثقافي دوره أيضًا في هذا المجال.

«الثقافة التي تسود فيها القيم السلطوية تُشيع تفكيرًا سلطويًا، والثقافة التي تشيع فيها القيم اللفظية تنشر تفكيرًا خرافيًا، بينما تُشيع الثقافة التي تغلب فيها القيم العلمية تفكيرًا علميًا.»[11].

هذا، ولا بد من تخليص التعليم من أسلوب التلقين وترك العنان للأنشطة التي تنمِّي الخيال وترصد المواهب التي تؤدي بخيال الطفل إلى واحة أفكار راقية، تعطي بذرة ندِيَّة بضَّة لتطوير مخترعات الأطفال فيما بعد.

وأجد من المفيد ممارسة الرقابة على النضج الإبداعي في مجال أدب الأطفال حتى لا يقرأ الطفل الأدب الساذَج والسطحي والمبتذل والمكرر، وحتى لا يقرأ الطفل الترجمة المُشوَّهة أو التي دَسَّت السُّمَّ في الدسم وغير ذلك.

إن الطموح أن نجد بين أطفالنا الطفل الخلاق المبدع وأن نعد أطفالنا للمستقبل الذي لا نعرف كيف سيكون، بعد أن شهدنا التغيرات الجذرية التي حدثت في المجتمعات.

«لقد حان الوقت لكي نعرض أمامهم تراث خبرتنا، وأن نأخذ منهم نظير ذلك جدَّة خيالهم السليم.. فهذا هو تمام العلاقة بين الطفل والبالغ، تبادل الخبرة التي يقتبس فيها أحدهما بعض الإلهام من الآخر»[12].

هناك مخاطر جدية إذا لم نهتم بثقافة طفلنا اليوم بسبب الغزو الثقافي والتبعية الثقافية، واختراق العقل العربي واقتلاعه من جذور القيَم والأصالة فتصبح حالة المجتمعات في تشتُّت وضياع لا تعرف الأصل من الزَّيْف.

«تحتاج التنمية الثقافية للأطفال إلى وعي طبيعتها الخاصة، لأنها لا تتحقق دون مراعاة هذه الطبيعة. وأعتقد أن الأمور الآتية مجتمعةً كافية لتوضيح هذه الطبيعة.. تحرص على نقل التراث الثقافي للطفل دون أن تنسى حياته في الحاضر وضرورة تهيئته للمستقبل.»(13).

لقد أصابت الدكتورة ناديا خوست عندما قالت:

«لا نستطيع أن نستدير عن التراث لأنه إنتاج البشر الفكري الصور التي تركوها عن وضع عاشوه، أحلامهم، أشواقهم، وأوهامهم التي نبتت هناك. هو مجموعة الثقافة والوعي والخيال والحقيقة التي لم يرَها الإنسان إلا محفوفةً بما يريده ويتمناه وبرأيه فيها، موقفه منها، وحلمه بالبديل التي بعدها.»(14).

إن التحديات لا تُعد ولا تُحصى؛ ولهذا لا بُدَّ من دعم دور الأسرة، ودور المدرسة بمناهجها التي ترسِّخ السِّلم والأمان من خلال الأخلاق الحميدة والتآلف المجتمعي، ودور المؤسسات الثقافية في دعم المواجهة في تقديم ثقافة طفلية مميزة؛ خاصةً وأن وسائل الاتصال الحديثة تلعب دورًا مُهمًا في ذلك، بعد أن تنوعت تقنيَّات مخاطبة الأطفال وتسيير سلوكهم فازدادت تشابكًا وخطورةً وتعقيدًا.

المراجع:

1- مجموعة كتاب، مكونات ثقافة الطفل العربي، توصيفات ورؤى، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، 2001م.

2- أحمد حسن حنورة، أدب الأطفال، مكتبة الفلاح، الكويت، 1987م.

3- شوق النكلاوي، المسرح المتحفي وثقافة الطفل، مركز الحضارة العربية، 2017م.

4- تُعدُّ قصة علي بابا والأربعين حرامي من قصص التراث العربي، وقد وردت في كتاب ألف ليلة وليلة.

5- هيثم يحيى الخواجة، أدب الأطفال بين النظرية والتطبيق، وزارة الثقافة وتنمية المجتمع، أبو ظبي، 2014م.

6- مجموعة مؤلفين، أدب الأطفال والتراث، منظمة طلائع البعث، سورية، بلا تاريخ.

7- هيثم يحيى الخواجة، مشكلات الكتابة للأطفال، رؤية وتجارب، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة 2010م.

8- عبد الله أبو هيف، التنمية الثقافية للطفل العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م.

9- عبد الرحمن عبد الخالق، دور قصص الأطفال في تنمية الأطفال، دائرة الثقافة، الرافد، الشارقة، 2016م.

10- هيثم يحيى الخواجة، دور المسرح في بناء شخصية الطفل، دار سويد، دمشق، سوريا، 2022م.

11- هادي نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، عالم المعرفة، الكويت، 1988م.

12- نادر القنة، مسرح الطفل وتنمية الشخصية الوطنية، المجلس الوطني، الكويت، 2003م.

13- سمر روحي الفيصل، ثقافة الطفل العربي، وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع، الإمارات، 2012م.

14- مجموعة مؤلفين، أدب الأطفال والتراث، منظمة طلائع البعث، سورية، بلا تاريخ.